وفى حدود نقدنا العربى القديم ظلت المحاولة واردة بدقة منذ عصر التنظيم المنهجى للرؤى النقدية ، وكان مصدرها فى معظم الأحيان ذلك الحوار الجدلى حول ما عُرف بعمود الشعر واستمرار تعقب البيئة النقدية لحركة الشاعر : تملى عليه التعليمات ،. وتفرض عليه الشروط من خلال ضرورة التزامه بمطلب « الوضوح» أو « شرف المعنى وصحته » أو «الإبانة» أو (مناسبة المستعار للمستعار له » وغيرها . كما سار على ذلك من القدماء من سار مثل المرزوقى والآمدى وغيرهما . وكذا كانت قضية السرقات الشعرية فتحا آخر متميزا فى باب الرؤية التراثية التى تحاول استكشاف الخيوط الدقيقة بين حقائق الإفادة من النمط الموروث ، وبين إمكانية السطو غير المشروع عليه ، أو حتى محاولة الاستسلام والخضوع التام له . مما يزج بالشاعر إلى منطقة الاستعباد ، وقد يحول بينه وبين الإضافة والابتكار . وكذا كان ما شاع فى البيئة النقدية من انتشار تلك المقولة الخطيرة حول نقاد المعانى ، ونقاد الألفاظ تحت دعوى أن كل شئ قد قيل ، وأن الأول لم يترك للآخر شيئا ، وأنه لا جديد تحت الشمس ، وتناسى هؤلاء أن الجديد يأتى بالضرورة اتساقا مع وقع الحياة ، طالما تجدُّد سطوع الشمس ذاتها ، وطالما ظل التغاير واحداً من أسس الحياة ومقوما من مقومات استمراريتها وتجدُّدها .

وكذلك دار الحوار النقدى وكثرت صوره حول قضية اللفظ والمعنى ، وقضايا البديع، وأنواعه ، وكان ما حاوله النقاد من فتح مجالات للتجديد أمام المحدثين تسليما منهم جميعا بهيمنة التراث وسيادته ، ومحاولة المعالجة من خلاله ، وضرورة الحفاظ عليه والتمسك به . وكانت البداية مع تعرف النقاد على خطر التراث، وضرورة التأكيد على أهميته ، وتسجيل دوره فى أصالة الإبداع ، مما يتراءى لنا فى ظلال ذلك البحث الدائب عن الأصول ، والحض على التمسك بها ، على غرار ذلك النحو الذى عرضه المرزبانى من روايته حول نصيحة أبى تمام لتلميذه البحترى فى مرحلة النشأة الفنية بأن يحفظ من أشعار العرب القدماء عشرة آلاف بيت ثم ينساها[1] .. ولعل أخطر ما فى الرواية هو تلك الرؤية النفسية لقضية النسيان التى يترجمها علم النفس بمصطلحاته حول عالم اللاوعى ومنطقة اللاشعور ، واستغراق المعلومة فى مكنونات أى منهما إلى أن تطفو على السطح فى لحظة الإبداع .

ولعل نفس الرصد قد ظهر بشكل أقل عمقاً عند ابن قتيبة حين اشتد ارتباطه بالتراث

---

(١) الموشح للمرزبانى ٥٠٧ .